لم افترقنا؟

بثينة سيدي عيسى - الجزائر

جو كئيب ممطر، ذكرني بآخرلقاء لنا كان بارد كهذه الليلة تماما، تظن أنت هذا الحل الأفضل لنا و اظن أنا هذا العذاب الأسوء لنا . غالبا ما كنت تفكر أنت بعقلانية و غالبا ما فكرت أنا بعاطفية لكن هل تعلم انني أقوى منك رغم صلابتك؟ تحديتك أنا من أجلك لكنك تحديتني من أجل نظرة المجتمع و من أجل تقاليد لا صحة لها، ظننت أنت أن قصتنا ستنتهي، ستنتهي قبل ان تبدأ لكنها تفرعت و تغلغلت جذورها في كل تراب حياتنا دون ان نشعر.

إتجهت أنا يومها نحوك و دقات قلبي تسبقني و كأنها تتسابق إليك لم أكترث إلى مظهري او إلى شكلي إن كان مرتبا أو ماذا سأقول أو كيف سأبدأ كان همي الوحيد التحدث إليك.

كل خطوة كنت أخطوها كان قلبي يدق أسرع يتوق لملاقاة الحبيب كانت تتسارع لرؤيتك احسست أنها تتصارع مع قفص صدري لتفكه و تنقض إليك، كأنها لم تعد تطيق بعدك! كان كل جسمي يرتجف أقسم أنني لم أعد أحس آنذاك بأي شيء ،يعني صراحة لقد نسيت ماكنت أفكر أو أشعر به لحظتها كنت أفترسك بنظراتي وفقط !

كنت أريد أن أخبرك كم أشتاق و كم أفتقدك ، كم أفتقد إبتسامتك و أحاديثك، وقفت أمامك و ألقيت التحية

مرحبا، كيف حالك؟ أجبتني و الدهشة تملأك : أهلا ! الحمدلله بخير و أنت كيف حالك؟ و ماهي أخبارك؟

كانت إبتسامتك ساحرة ، كثيرا ما كنت أخبرك أن إبتسامتك تشفي و غالبا ما كنت أخبرك بأن كل بنات الجامعة يعشقونك لسببها، أجبتك و مشاعر مختلطة تراودني فرح و حزن، حب و كره، أمان و خوف، لطالما حدثتك عن خوفي الشديد الذي أشعر به قربك رغم أمنك، لا أعلم لما يراودني هذا الإحساس ربما رسالة من الله أنك لست لي!

بخير الحمدلله، هل لي أن أجلس لنتحدث قليلا؟ إبتسمت مجددا و أردفت لك ذلك. جلست و لم أنطق بحرف كنت أحدق بك و فقط نسيت حينها أحرف اللغة، نسيت حتى إسمي فما بلاك ما كنت سأقوله . كنت أنت منهمكا في الكتابة غير مبال بي او ربما إصطنعت ذلك ، لم أكن أهتم بتلك التفاصيل آنذاك شردت في تفاصيلك، سيرتك فقط تذهب عقلي فكيف لعقلي أن يبقى بوجودك!؟

قلت لي : أمم لما لا تتحدثين؟

اجبت بصوت مرتجف : دقيقة واحدة!

_أمم لك ذلك

_هل تعلم أنك ضخمت الأمور لم يكن هناك داع لكل هذا؟

_اجبت مصطنع عدم الفهم ولا مبالاة : لم أضخم الأمور كل ما في الأمر أنني ارتبطت، أنت تعلمين الأحداث جيدا و لقد سألتك سابقا، هل تقبلين على نفسك هذا ؟ أجبتني بالرفض التام إذن فلتحبي لغيرك ما أحببتي لنفسك!

_هل تريد إقناعي أن لديك صديقة هاه، أعلم جيدا أنك تفعل هذا كي تبعدني عنك ليس إلا، بربك لماذا تفعل كل هذا ؟

_رفعت هاتفك ثم أرجعته لمكانه قائلا أمم كنت سأريها لك لكن لن يفلح هذا أيا كان تأكدي لدي صديقة ولإحترام كيانها غير مسموح لي التكلم معك !

_إبتسمت بسخرية و أجبتك هل أنا الفتاة الوحيدة في هذه الجامعة ؟ أنت تتحدث مع الجميع هنا تقريبا!، كانت ردت فعلي همجية.

_هن لسن مثلك و كلهن يدرسن نفس تخصصي ولهذا تريني أحادثهن كثيرا.

_قاطعتك بسرعة قائلة لا يهمني اردت فقط أن أشير لهذا لا غير، و ملامح الغيرة كانت بادية علي لم أستطع أن أتداركها

_إبتسمت أنت إبتسامة غرور و إنتصار فواضح جدا أن نار الغيرة تكاد تلتهمني و أجبت نعم هذا شأني

_صرخت بصوت لا يخلو من الغيرة: هيثم تكلم معي لماذا انت منهمك في الكتابة هكذا سأقتلك بإذن الله

_لم تتمالك نفسك من الضحك قلت لي السنة المقبلة نتخرج إصبري علي قليلا سترتاحين من رؤيتي و ستتخلصين مني إلا الأبد.

كلانا نعلم أن هذا غير ممكن فكيف لي أن أرتاح و أنت بعيد عن نظري؟ كيف لي أن أتقبل بعدك و أنا لم أتقبل بعد عزوفك عن الحديث معي؟

_أجبتك مصطنعة البرود نعم سأرتاح سأرتاح كثيرا!.

_ابتسمت جيد أنك سترتاحين هذا المهم.

تتهرب أنت دائم من التحدث في أي موضوع يخصنا و كأنك إن فتحته ستفتح عليك كل أبواب جهنم ! تعبت من لوم نفسي و من لومك لأننا لا نستحق اللوم ليس باليد حيلة بل هي بعض العادات و التقاليد قضت على حلمنا.

_سألتك متحاشية النظر لعينيك الذابلتين اللتين تسحراني أمتأكد أنها نهايتنا ؟

_أكملت انت الكتابة ولم تجبني فورا ربما فكرت مليا قبل أن تجيبني ثم قلت و صوتك تغير تماما كان يبدو عليك الإنزعاج، ليس علينا التحدث في هذا بعد الآن نحن لم نكن و لن نكون أبدا و كيف لنا أن نكون وليس هناك أساس حتى لتقوم به علاقتنا، فلتنسيني!

_أحسست حينها أن أبواب جهنم فتحت عليّ إبتسمت و كلي حطام أحسست أن قلبي توقف كلماتك كانت جارحة قتلت كل ذرة أمل في قلبي، قمت دون أن أنطق بكلمة وكانت آخر مرة لنا.

أو تعلم لقد مر وقت طويل على فراقنا و لا زلت لم أقتنع بالسبب الذي إفترقنا بسببه تبا للعادات والتقاليد و تبا لهذا المجتمع القاسي. جالسة أن الآن أمام نافذة أندب أحلامي الحمقاء، إنتزعني صوت رنيم من شرودي ذاك

_أمي هل لي بكوب ماء؟

نظرت إلى بناتي لقد كبرن كثيرا! كنت أتمنى أن يكن منك وأن تشاركني أنت حياتي هذه لكن قدر الله ما شاء فعل، ربما أنا أخون زوجي بتذكرك بعد كل هذه السنوات لكن لا جناح علي فالحب العذري الطاهر يظل للأبد، يقولون غالبا ما يبدأ الحب بعد نهاية الإنبهار بالبدايات، أعترف مازلت منبهرة ببدايتنا تلك لازلت أحتفظ بكل تلك اللحظات أحتفظ بإبتسامتك التي لا تخلو من الخجل، ببساطتك و عفويتك و صوتك الرجولي الهادئ، الذبول في عينيك البريئتين، حتى أنني لم أنسى شعوري و أحاسيسي أنذاك، قلبي الذي كان يدق لك ولو إلتقيتك كل ثانية ومصارعتي الوقت لرؤيتك فقداني التركيز بوجودك، وإنبهاري لرؤيتك بعد كل ماحدث و بعد تلك الأحداث المؤلمة التي مررت بها بسببك، ظليت عزيزا و لازلت عزيزا كما كنت و ستظل إلا الأبد، رغم أنني أعيش حياة سعيدة متزنة يعمها الإستقرار لكنني كنت أتمنى أن تكون معك! بعيد أنت لأبعد مدى قريب أنت كأقرب حد .

_إبتسمت و أردفت من عينيّ يا نبض قلبي ، تعالي حان وقت نومكِ الآن ، سأروي لكِ قصة